

16/05/2019 مقالات وآراء

الحضارة التي تحفر قبرها : د. محمد أحمد الزعبي



الحضارة التي تحفر قبرها

د. محمد أحمد الزعبي

08.05.2019

العنوان أعلاه ، هو العنوان الفرعي لكتاب الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي الذي صدر 1992 وذلك بمناسبة مرور 500 عام على " اكتشاف أمريكا " ، وأيضاً مرور 500 عام على " سقوط غرناطة " آخر مملكة للثقافة

إسبانيا ، والذي

أ إلى العربية ، عن دار الشروق في القاهرة ، عام 1999 م ، وبالعنوان

ورغم أن عمر هذا الكتاب تجاوز ربع القرن ، فإن مضمونه ما يزال راهناً ، الأمر الذي سمح لي " حفارو القبور " أن أشرك القارئ معي في قراءة هذا الكتاب الهام ، علماً أننا سوف نكتفي بعرض مانراه مهماً في بعض فصول هذا الكتاب ، لمعرفة الوضع العجيب الحالي الذي عليه أمتنا العربية عامة ، وسوريا خاصة ، ذلك أن معرفة السبب ، إبطال للعجب .

1. يرى غارودي ، أن صدام حسين قد ارتكب خطأ بالرد على الحرب الإقتصادية التي ارتكبت ضد بلاده ، بالغزو العسكري للكويت ، لأنه بهذا قد أعطى أمريكا الذريعة التي كانت تنتظرها منذ نصف قرن ، أي منذ محاولة مصدق تأميم البترول الإيراني ، والتي أدت في ذلك الوقت الى تحرك أمريكي في الخليج بحجة " الدفاع عن الحق الدولي " !! . ويعلق غارودي على أكلذوبة " الدفاع عن الحق الدولي " بقوله : إن الدفاع عن الحق الدولي ، " لا يمكن أن يكون



انتقائياً ، لا يمكن تطبيقه بعناد في حالة ضم الكويت ونسيان ضم القدس . صحيح إن القدس ليست سوى مدينة مقدسة، لكن الكويت مقدسة ألف مرة ، بما أنها محاطة بآبار البترول " (ص 15) ويستشهد غارودي على مافعلته وذلك باعتراف الأمم المتحدة بأن " حرب الخليج 1991 قد أرجعت العراق إلى عصر أمريكا والغرب بالعراق ما قبل الصناعة " ، ذلك أن أمريكا ألقت على بغداد حتى اليوم الرابع من الحرب 60 ألف طن من المتفجرات وهو ما يعادل خمس مرات ما ألقوه على هوروشيما ! (16) .

2. في رؤيته للإشكالية التنموية في بلدان العلم الثالث ، ربط غارودي ربطاً جدلياً بين تخلف العالم الثالث و تطور البلدان الرأسمالية الغربية (أوروبا وأمريكا) ، وذلك أن " خمسة قرون من الإستعمار، من نهب ثروات ثلاث قارات ، هي التي أدت إلى تدمير اقتصادياتها وتكبيها بالديون (17) ، ويستشهد غارودي على صحة رؤيته هذه ، بما كتبه السفير المقيم في مرشد آباد عام 1769 عن آثار الإستعمار البريطاني للهند : " إن هذا البلد الجميل أصبح على شفا الخراب منذ اشترك الإنجليز في إدارته " (19) . وقد تمثل هذا الخراب ، وبعد أن تحولت الهند إلى ملكية خاصة ، واغتصبت بذلك من الفلاحين الفقراء أراضيهم التي كانت تتيح لهم إنتاج قوتهم ، بالمجاعة التي أدت إلى وفاة مليون شخص فيما بين عامي 1800 و 1875 وإلى وفاة 15 مليون شخص فيما بين عامي 1875 و 1900 . وتمثل كذلك باحتفاظ رؤوس الأموال الأجنبية بهيمنتها على هذا البلد بعد استقلاله 1947 ، حيث سيطرت هذه الأموال على 97% من البترول ، 93% من الكاوتشوك ، 62% من الفحم ، 73% من مناجم الحديد ... الخ (20) .

3. وبالنسبة لمن يريد أن يرى حقيقة العالم ، وليس من خلال صورته في التلفزيون ووسائل الإعلام (والكلام

م ز) : الحريق

الشمال والجنوب ، بين اقتصاديات الجنوب المدمرة كلياً بفعل قرون من النهب والإستعمار ، واقتصاديات الشمال المتخمة بما نهفته وسلبته من الجنوب .

مارودي - حرية

(31) ويدلل غارودي على صحة استنتاجه هذا ، بقوله : إنه في عام 1954 ، كان يكفي لمواطن الأكثر ضعفاً برازيلي أن يملك 14 كيساً من البن ، لكي يشتري سيارة جيب من الولايات المتحدة ، وفي عام 1962 كان يلزم نفس المواطن 39 كيساً (31) (!!) . هذا وتمثل فوائد الديون غالباً نفس قيمة أصل الدين . وتساوي قيمة هذه الفوائد قيمة ومن أجل دفع مجمل الصادرات مما يجعل أي تنمية مستحيلة (والكلام لغارودي) (31) . ويتابع غارودي : (34) الدين بالدولار الأمريكي ، تنتج البلدان المعانة كثيراً مما لا تستهلكه ، وتستهلك كثيراً مما لا تنتجه .) .

أما الحريق

المشتعل في العالم الثالث ، فهو " آلية تسخير العالم الثالث لمصالح الغرب ويقوم بها صندوق الثاني النقد الدولي والبنك الدولي . اللذين أنشأتهما وتسيطر عليهما الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون ، عن طريق تقديم قروض للدول التي تمر بصعوبات معينة تحت شروط سياسية وإجتماعية وإقتصادية ومالية ، تسمى بحياء " برامج الإصلاح " أو " خطط الإصلاح البنوي " . وعادة ما يتكون هذا البرنامج (ا برنامج الإصلاح البنوي) من



العناصر الآتية :

< خفض سعر العملة ،

< خفض اعتمادات التعليم ، الصحة ، الإسكان ،

< إلغاء الدعم الحكومي بما فيه الدعم الغذائي ،

< خصخصة الشركات العامة أو رفع أسعارها (الكهرباء ، الماء ، المواصلات .. الخ)،

< إلغاء التحكم بالأسعار ،

< زيادة الضرائب ومعدلات الفائدة ، بهدف خفض التضخم .

هذا مع العلم ، أن القروض الجديدة عادة ماتقدم لتسديد فوائد الديون القديمة . ويعلق غارودي على دور كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي بقوله : " وهكذا يخرب كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي نصف الكرة الأرضية الجنوبي منذ عشرين عاماً (أي منذ 1972 م.ز) من الأرجنتين إلى تانزانيا من باكستان إلى الفلبين ، وبدؤوا الآن بتطبيق نفس الأسلوب في دول الشرق " (31 - 34) .

4. وفي الجزء من الكتاب والذي يحمل عنوان " مظاهر الإنحطاط " ، يحدد غارودي مفهوم الإنحطاط بأنه " قطع أواصر النسيج الاجتماعي لتحويل المجتمع إلى ذرات لتخريب العلاقات الإجتماعية بين الجماعات القومية والدينية " الأمر الذي يعني : " أن الإنحطاط على المستوى الفردي هو الاهتمام بالنفس ورفض الآخر ... وعلى مستوى الجماعات هو النزوع إلى السيطرة " . ويصل غارودي هنا إلى الإستنتاج بأن " عبادة السوق ، والملكية المطلقة للمال تقودا مجتمعاتنا ، كل مجتمعاتنا ، إلى الإنحطاط ، وإلى الموت " (69) . ويرى أن الولايات المتحدة الأمريكية ، باتت بعد حرب الخليج ، تجسد كل أعراض الإنحطاط ، وذلك بقيامها بالآتي ، على حد وصفه :

< تراجع المسؤولية الجماعية لصالح الأنانية واللامبالاة ،

< تفاقم عدم المساواة ، (يتحكم خمس سكان الأرض بأربعة أخماس ثروات الأرض ص 7)

< التمييز العنصري ، الإقتصادي والثقافي ،

< تفكيك مستقبل المجتمع ، بسبب محاولة الإستفادة القصوى من الحاضر على حساب المستقبل ،

باستخدام الوسائل المتاحة دون الوعي بالأهداف النهائية ، (النفط على سبيل المثال ، م ز)

< تفكك الحضارة بتراجع المسؤولية الجماعية وازدياد التفاوت بين الناس . (69 - 70) .



< تراجع الإخلاص للوطن أمام المصالح الخاصة .

وليس ذلك - حسب غارودي - سوى أمراض اقتصاد السوق في امتصاص كل "القيم" ، وكل ماهو "اجتماعي" حيث المال هو وقود كل حركة وهدفها ، وعلى كافة المستويات وصولاً إلى " المتاجرة بالدين " (71).
وبما أن الإحصاءات التي اعتمدها غارودي حول نسبة الأغنياء والفقراء في العالم ، تعود إلى ما قبل 1992 ، (أنظر فقرة تفاقم عدم المساواة أعلاه) فقد ارتأينا ، أن نحدث (بضم النون وتشديد الدال) هذه النسبة التي ذكرها المرحوم غارودي ، بالنسبة الجديدة التي ذكرتها منظمة " أوكسفام " البريطانية غير الحكومية ، في تقريرها عشية انعقاد مؤتمر " دافوس " الإقتصادي لعام 2018 ، وهي أن 82% من الثروات التي تحققت في العالم عام 2017 تدفقت إلى جيوب أكثر سكان العالم ثراءً وعددهم 1% من سكان هذا العالم ، فيما لم يسجل نصف الفقراء أي زيادة تذكر (!!) .